العلاقة بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور فردريك الثاني (624-626هـ/1226-1229م)

د. غادة حسن*

منال بايرلي**

(تاريخ الإيداع 5 / 1 / 2021. قبل للنشر في 29 / 3 / 2021)

□ ملخّص □

شهدت العلاقات بين الغرب الأوروبي والمشرق العربي الإسلامي عشية الحملة الصليبية السادسة نشاطاً دبلوماسياً كبيراً خاصة بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور الألماني Fredrick II . وقد اجتمعت عدة عوامل لإقامة هذه العلاقات كان أهمها الخلاف بين البابوية والإمبراطور الألماني الذي وصل إلى مدينة عكا في عام 626هـ/1228م. بالإضافة إلى اضطراب الأوضاع السياسية في بلاد الشام ومصر بسبب التنازع بين أفراد البيت الأيوبي للهيمنة على الدولة بأسرها، واستعانتهم بالقوى الخارجية ضد بعضهم البعض.

الكلمات المفتاحية : الصليبية ، الأيوبية، علاقات ، مفاوضات، الأوضاع .

* أستاذ مساعد ، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

**طالبة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

The relationship between the King al-Kamil of Ayyubid and Emperor Frederick II (H /1226-1229 AD-624-626)

Dr. Ghada Hassan •
ManalBayrle *•

(Received 5 / 1 / 2021. Accepted 29 / 3 / 2021)

□ ABSTRACT □

The Relations between the European West and the Arab-Islamic East on the eve of the Sixth Crusade witnessed a major diplomatic activity, especially between the King al-Kamil of Ayyubid and the German Emperor Fredrick II. Several factors have come together to establish these relations, the most important of which is the disagreement between the pontifical and the German emperor who arrived in Acre in 626 Ah/1228. In addition, the political situation in the Levant and Egypt was disrupted by the conflict between the members of the Ayyubid House to dominate the entire country, and their use of external forces against each other.

Keywords: Crusade, Al Ayyubid , Relations, Negotiations , The articulatings .

• **Associate professor, department of history، Faculty of Arts,Tishreen University, Lattakia, Syria.**
** **Postgraduate student, specializing in Arab history and Islam, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

تطور الأوضاع على الساحة السياسية في الغرب الأوروبي واضطراب الأوضاع الداخلية في بلاد الشام ومصر بسبب التنازع بين أفراد الأسرة الأيوبية وطمع كل منهم بأملاك الأخر، دفعت الكامل الأيوبي حاكم مصر (615-636هـ/1218-1238م) إلى استدعاء الإمبراطور Fredrick II (617-648هـ/1220-1250م) لمساعدته ضد إخوته الطامعين بعرشه وأملاكه، وخاصة بعد قيام هؤلاء الإخوة بالاستعانة بالدولة الخوارزمية التي قامت في إقليم خوارزم على يد أنوشتكتين وتوجهوا إلى الشرق العربي الإسلامي كنتيجة مباشرة لحركة التوسع المغولي. وقد تزامنت هذه الأحداث في المشرق مع توتر العلاقات بين البابوية والإمبراطور الألماني Fredrick II من أجل السيطرة على إيطاليا، إذ أصدرت البابوية حرماناً كنسياً بحق الإمبراطور الذي أراد التحرك بسرعة لإنقاذ صورته أمام الغرب الأوروبي الذي لطالما سعى جاهداً للتخلص من هذا الإمبراطور بلفت نظره بضرورة القيام بحملة صليبية سادسة ، وتوجيه أنظاره إلى الساحة العربية الإسلامية ، واستعادة الممتلكات التي خسرها بيت المقدس. وقد أدت هذه الأحداث في المشرق والغرب إلى حدوث تقارب استثنائي بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور الألماني ترجم إلى تبادل سفارات ، ورسائل وفي النهاية إلى توقيع معاهدة سلام.

أهمية البحث وأهدافه:

تبرز أهمية البحث من خلال إلقاء الضوء على مرحلة تاريخية هامة، وهي فترة الحروب الصليبية، والعلاقة التي نشأت بين القادة الصليبيين والحكام الأيوبيين حيث جرى فيها استنجاد كل من الطرفين بالآخر (المسلمين والصليبيين)، وتوضيح نوعية هذه العلاقة التي نتجت عن مصالح مشتركة خدمت الطرفين، ولكنها بالمقابل أدت إلى خسارة المناطق التي استعادها المسلمون من الصليبين في فترة سابقة.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على جمع المعلومات التاريخية من المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع ثم دراستها وإعادة تحليلها ومقارنتها مع بعضها البعض للوصول إلى الحقيقة العلمية التاريخية الصحيحة.

شخصية الكامل الأيوبي:

هو أبو المعالي محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، سادس ملوك مصر من الأيوبيين استقل بمملكة مصر بعد موت أبيه العادل (ت. 615هـ/1218م). وصف الكامل الأيوبي بأنه كان ملكاً كثير السياسة(رجل سياسي بامتياز)، وهو تعبير بلغة أهل الزمان يدل على دهائه السياسي. أحب أهل العلم وشغف بسماع الحديث النبوي وناصر العلماء، وكانت تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم كالجمال اليمني النحوي[1]، وابن دحية [2]، والأمير صلاح الدين الفضلاء[3]، فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه [4].قال عنه المقريزي أنه "كان مهيبا حازما سديد الآراء حسن التدبير لمماليكه عفيفا عن الدماء[5]. كما وصفه المؤرخ القاضي جمال الدين ابن واصل بأنه "رجل سياسة من الطراز الأول[6]. أما المؤرخ ابن خلكان فقد وصفه بأنه "*سلطان عظيم القدر جميل الذكر متمسكا بالسنة النبوية لا يضع شيئا إلا في موضعه من غير إسراف ولااقتار*"[7].

شخصية الإمبراطور فردريك الثاني:

بعد وفاة Henry VI إمبراطور الإمبراطورية الرومانية (1190م–1197) الذي كان قد أوصى بالعرش لولده فريدريك الثاني إلا أن فريدريك لم يكن قد تجاوز الثلاث سنوات من عمره عند وفاة والده لذلك لم يتمكن من اعتلاء العرش وأثرت والدته كونستاس الوصاية عليه وأعلنت تبعيتها للبابا Innocent III الذي سعى جاهداً لفرض نفوذه الديني والدنيوي على الغرب المسيحي كله،وظل فريدريك تحت وصاية والدته حتى وفاتها ثم انتقلت هذه الوصاية إلى البابا نفسه بناء على رغبتها[1]. وفي عام 2هـ/ 1215م توج فردريك الثاني إمبراطورا وكان عمره آنذاك اثنان وعشرون عاما وقد دعمت الإمبراطورية حقه في هذا العرش. وصف المؤرخون الإمبراطور بأنه كان وسيماً يميل إلى البدانة مثقفاً إلى درجة عالية تحدث باللغة الفرنسية والألمانية والايطالية واللاتينية واليونانية والعربية، وكان واسع الاطلاع في الفلسفة محباً للجدل والرياضيات والعلوم والطب والتاريخ[2]. اهتم فريدريك الثاني بالديانات الأخرى خاصة الإسلام الذي تأثر به تأثراً كبيراً لأنه تربى وتعلم في صقلية على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية. استقبل العلماء المسلمين وناقشهم في أمور الدين ولقب بأعجوبة الدنيا[1].

الأوضاع السياسية في المشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي

قسم العادل دولته الواسعة في حياته بين أولاده إلى ثلاث ولايات في عام 596هـ/1200م، فأعطى الكامل محمد مصر، ومنح بلاد الشام للمعظم عيسى، ما عدا المناطق الواقعة في حوزة الصليبين، وخص الأشرف موسى بإقليم الجزيرة، وكان يتبع الحاكمين الأخيرين سلسلة برمتها من الولايات الأصغر على رأسها أتباع للأسرة الأيوبية كما هو الحال في حماه وبعلبك، وإما أمراء محليون تجمعهم معها علاقة مودة مثل حصن كيفا وماردين.

استقر النظام الذي أسسه العادل طوال مدة حكمه وأثبت كفاءته حتى بعد وفاته، حين اتفق أولاد العادل لمواجهة الخطر الخارجي المتمثل بالحملة الصليبية الخامسة على مصر، وتمكنوا من هزيمة الجيش الصليبي عام 619هـ/1222م في المنصورة وأرغموه على الاستسلام[2].لم يدم الوفاق بين أبناء العادل الثلاثة الكامل محمد في مصر والمعظم في دمشق و الأشرف في إقليم الجزيرة طويلاً بعد انتصارهم على الحملة الصليبية، ولم يلبث أن تبدلت الأحوال في نهاية عام 619هـ/1223م إذ كان المعظم عيسى يخشى من أخويه الكامل محمد والأشرف موسى ويطمح في حكم مصر، والتوسع في إقليم الجزيرة[3]، والواقع أن هذا التحول في العلاقة بين أبناء العادل قد جاء في وقت هم أحوج منه في التحالف والتكاتف بفعل خطر جديد هددهم وهو الخطر الخوارزمي الذي ظهر كنتيجة مباشرة لحركة التوسع المغولي[4].

كان الأشرف موسى أكثر شعوراً بالخطر الخوارزمي لمتاخمة ملكه في الجزيرة ممتلكات الخوارزميين، لذلك عمل جاهداً على إعادة توحيد البيت الأيوبي لمجابهته فقام بزيارة لأخيه المعظم عيسى في دمشق وطلب منه أن يعمل بسرعة على

---

[1] عمران(محمود سعيد) : تاريخ الحروب الصليبية، مصر القاهرة، دار المعارف الجامعية، 2000م، ص 207 .

[2] عاشور(سعيد عبد الفتاح) : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ج2، ط9، ص237.

[1]جبران(نعمان محمود) : دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار البلازوري العلمية للنشر، الأردن ، ص21 .

[2]توراو (بيتر)، الظاهر بيبرس، ترجمة محمد جديد، قدمس، بيروت، 2002، ص 31–32.

[3]طقوش (محمد سهيل):تاريخ الايوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، بيروت، دار النفائس، ط2، 2008، ص223 –324.

[4]ابن الاثير(علي بن محمد الشيباني):الكامل في التاريخ ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، ج10، ط2، 2003م، ص327.

توحيد البيت الأيوبي لمجابهة خطر الخوارزميين المتزايد إلا أن المعظم عيسى أصم الأذان عن دعوة أخيه ولم يكن يفكر إلا في التوسع على حساب أخويه فقبض على أخيه الأشرف وأجبره على التعهد بمساعدته لتوسيع ملكه شمالا باتجاه حمص وحماه ثم مهاجمة مصر لكن ما كاد الأشرف موسى يتخلص من قبضة أخيه حتى نقض ما بينه وبين أخيه المعظم عيسى ثم زار مصر دون أن يخبر المعظم عيسى وأكد تحالفه مع أخيه الكامل محمد وأخبره بما حدث[5].

كان للملك الكامل محمد من النفوذ والسلطة ما أمكنه من فرض نفوذه على أخوته ولم يخرج عن طاعته إلا المعظم عيسى الذي وجد في زيارة الأشرف إلى مصر بداية لتحالف الأشرف والكامل ضده فهاجم حماه حيث كان السلطان الناصر صاحب حماه قد التزم للمعظم عيسى بمال يحمله إليه أن هو حكم حماه ولكنه لم يف بوعده فقام المعظم عيسى بمهاجمة حماه التي أغلقت أبوابها في وجهه واشتبك مع أهلها في نزاع عنيف ثم تركها المعظم واستولى على أعمالها المعرة وسلمية[6].

أثارت هذه الأحداث الأشرف موسى والكامل محمد فأرسل هذا الأخير يطلب منه الرحيل عن حماه فتركها وهو حنق، وكان ذلك فاتحة الخلاف بين المعظم عيسى من جهة وأخويه الأشرف موسى والكامل محمد من جهة أخرى، وتحققت مخاوف المعظم من أن أخويه ينويان اقتسام بلاده مما زاد في حدة الخلاف أنه لم يبقى محصوراً داخل الأسرة الأيوبية بسبب استعانة أطراف النزاع بقوى خارجية مما أعطى النزاع بعداً جديداً[7].

وكان رد المعظم عيسى أن يكون جبهة معارضة لأخويه الأشرف والكامل، فأرسل إلى أخيه المظفر غازي صاحب خلاط يحثه على العصيان فأجابه المظفر غازي إلى ذلك،وحالف أخاه، وطمع فيه، وبعد ذلك أرسل المعظم عيسى تهديدا لأخيه الكامل، وأخذ في مهاجمة حمص 623هـ/1226م، وخرب قراها ومزارعها ولما فشل في الاستيلاء عليها تركها وعاد أدراجه[8]. انضم الأشرف موسى بعد ذلك إلى أخيه المعظم عيسى ضد أخيهما السلطان الكامل محمد، فعندما عاد الأشرف موسى من مصر إلى دمشق استقبله المعظم عيسى وأكرمه وظل به حتى نجح في استمالته إلى جانبه وكونا حلفا مشتركا ضد السلطان الكامل ومن يناصره[9].

ولم يكتف السلطان المعظم بذلك وإنما تحالف مع السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ملك الخوارزمية، ووثق علاقته به ليستعين به ضد أخيه وأرسل إليه يطلب النجدة، ووعده بأن يخطب له ويضرب السكة باسمه فسير السلطان جلال الدين خلعة لبسها، وشق بها دمشق وقطع الخطبة للسلطان الكامل[10].

نتيجة لهذه الظروف لم يكن أمام السلطان الكامل محمد من خيار إلا الطريق العسكري وعليه أن يستعين بقوة أجنبية،فاستعان بالإمبراطور فردريك الثاني صاحب صقلية، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وطلب منه الحضور الى الشرق لمساعدته ضد أخيه المعظم والخوارزمية ووعده بإعطائه الساحل وبيت المقدس[11].

المفاوضات بين فردريك الثاني والملك الكامل ومعاهدة يافا

[5] المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، ج1، ص333.

[6] إبراهيم (رجب محمود):تاريخ الدولة الأيوبية، مكتبة الإيمان، المنصورة- القاهرة، 2009م ، ص447 .

[7] طقوش، تاريخ الأيوبيين، ص324-325 .

[8] إبراهيم، تاريخ الدولة الأيوبية، ص448.

[9] عبد المنعم (حمدي): دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998م، ص114

[10] ابن الأثير، الكامل، ج12، ص 111، 487،489-488.

[11] إبراهيم، تاريخ الدولة الأيوبية، ص449.

أما على الجانب الغربي فان التطورات التي شهدها الغرب الأوربي في تلك الفترة، وأمام الضغوطات التي واجهها فردريك الثاني للقيام بحملة صليبية جديدة حيث كان البابا Innocent III (613-625هـ/1216-1227م) يتوق لإرسال حملة صليبية جديدة لسببين: أولهما فشل الحملة الصليبية الخامسة، وثانيهما العرض الذي قدمه الملك جان دي برين عند وصوله إلى روما في أوكتوبر سنة 618هـ/ 1222م عن أحوال الصليبيين في بلاد الشام وحاجتهم الماسة للمساعدة فلجأت البابوية إلى ترغيب فردريك في انجاز ما وعد به منذ زمن طويل فاقترح البابا على الإمبراطور زواجه من إيزابيلا (يولندا) ابنة حان دي برين[12] الوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس في عكا بشرط أن يتم الزواج في بلاد الشام نفسها غير أن فردريك ما لبث أن تزوج من تلك العروس في جزيرة صقلية 612هـ/ 1215م وحمل منذ ذلك الوقت لقب ملك مملكة بيت المقدس[13].

أعطى فردريك وعداً جديداً للبابا للقيام بالحملة الصليبية عام 625هـ/ 1227م وكان جاداً هذه المرة للقيام بالحملة الصليبية إلى الأراضي المقدسة وعلا حشدت الجيوش من كل أوروبا للقيام بالحملة إلا أن فردريك رأى أن الأوضاع غير مهيأة للقيام بهذه الحملة الحشود التي تجمعت في ميناء Otranto لم يتم تحضير العدد الكافي من السفن لحملها وان الإمدادات سيئة الأعداد والأحوال الصحية في المعسكر كانت تعيسة[14].

وفي النهاية انطلقت الحملة المنتظرة في أيلول عام 623هـ/ 1227م بقيادة الإمبراطور فردريك لكن الطاعون فتك بالكثير من الجنود وأصاب الإمبراطور نفسه، وعندما أعياه المرض عاد إلى ميناء Otranto وتقرر إلغاء موعد المغادرة حتى تتحسن صحته[15].

تزامنت هذه الأحداث مع وفاة البابا Honorius III وخلفه الكاردينال أوغولينوأوف أوسيتا وكان رجلا عجوزاً لكنه تمتع بنشاط مدهش وتبنى اسم Gregory IX (623-639هـ/1227-1241م) وعندما سمع البابا خبر عودة فردريك أصدر حرماناً كنسياً بحقه في ضوء سجل أعمال التأجيل المتكررة له[16].

ونتيجة لهذه الظروف التي أحاطت الطرفين وحاجة كل طرف للأخر جرت مراسلات بينهما. أرسل الملك الكامل محمد عام 624هـ/1226م الأمير فخر الدين يوسف بن الشيوخ[17] إلى صقلية ليطلب المساعدة من الإمبراطور فاستقبله الإمبراطور بالترحاب الذي أعرب من خلاله عن تعاطفه مع الملك إلا أنه لم يعده بالعون والمساعدة على أنه ما يزال يفكر في قيادة الحملة الصليبية إلى الشرق ، وحتى يبقي باب المفاوضات مفتوحا أرسل سفارة مماثلة إلى القاهرة تحمل هدايا و رسائل ودية إلى السلطان الكامل محمد فأكرم الكامل رسول الإمبراطور وقبل الهدايا وكان قد أعد الكامل هدية

---

[12] جان دوبرين (1148-1237م) ملك القدس وإمبراطور لاتيني في الشرق (1231-1237م) ابن إيراد الثالث، كونت بربيه، وزوج ماري دي مونتفيرا ملكة القدس، صهره فردريك الثاني أخذ منه مملكة لبيت المقدس. مولر-فيز (فولفغانغ)، ترجمة محمد وليد الجلاد، دار الفكر، دمشق، ط2، 1404هـ/1984م، ص 25.

[13] محمد(محمد مرسي):عصر الحروب الصليبية، الإسكندرية، 2004م، ص476.

[14] زكار(سهيل): الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية الحملة السادسة، ج3، دمشق، 1998م، ص35.

[15] عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص288.

[16] زكار، الموسوعة الشاملة، ج3،ص36.

[17] فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ: هو قائد الجيش الأيوبي، وأحد الأمراء المهرة في عهد الملك الكامل، وازداد نفوذه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب. توفي في معركة المنصورة أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر. للمزيد انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج4و5.

فاخرة للإمبراطور وطلب منه أن يحضر إلى الشام والساحل ويعطيه بيت المقدس وجميع فتوحات صلاح الدين بالساحل[18].

على الرغم من اقتصار العلاقات خلال هذه الفترة على مبادلات، ومراسلات، ووفود بين الملك الكامل وفردريك الثاني، ازداد غضب البابا Gregory IX فلعن فردريك،وحرم الذهاب معه إلى الأماكن المقدسة وأشاع عنه أنه كفر، واعتنق الإسلام.عند وصول الإمبراطور فردريك الثاني إلى عكا أرسل رسوله إلى الملك الكامل وأمره أن يقول له *الملك يقول لك :كان من الجيد والمصلحة للمسلمين أن بذلوا كل شيء ...ولا أجيء إليهم والآن فقد بذلتم لنائبي في زمن حصار دمياط الساحل كله وإطلاق الحقوق بالإسكندرية وما فعلناه وقد فعل الله بكم ما فعل من ظفركم وإعادتها إليكم ومن نائبي؟ إن هو أقل غلماني لا أقل من أعطاني ما بذلتموه له* "[19].

لكن الوضع السياسي في المشرق العربي الإسلامي كان قد تغير عند وصول فردريك الثاني لصالح الملك الكامل لأن أخيه المعظم توفي، ولم يعد الكامل بحاجة للمساعدة كما أن ما وعده به من أملاك المعظم أصبح الآن جزء من مملكته وعلى عاتقه حمايتها والذود عنها[20].

ويصف ابن واصل الموقف فيقول: "*تحير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق، فراسله ولاطفه*"[21].ويبدو أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الأيوبي أن يصطدم بالصليبيين بالشام في تلك المرحلة التي تعرض فيها لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول فأراد أن يطيل أمد المفاوضات بينه وبين فردريك[22].

أدرك الإمبراطور أن الكامل أصبح في موقف صعب لم يكن ليتوقعه لكنه هو الآخر خرج من بلاده محروماً من الكنيسة، مغضوباً عليه من البابوية، وليس له إلا التمسك بما وعده به الملك الكامل، وإن عودته الى أوربا مهزوماً سيجعله محط سخرية وتشهير وخاصة من قبل البابا فالمسألة بالنسبة إليه إذن كانت تعني مستقبل عرشه في الغرب الأوربي، ومصير المعركة بينه وبين البابوية،وهو لم يتردد في التصريح لأصدقائه من المسلمين في المشرق بأنه ما له غرض في القدس، ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرج[23].فبعث إلى الكامل رسوله فخر الدين الذي سبق وحمل إليه دعوة ملك مصر للقدوم إلى الشام مرحباً به ومقدماً إليه هدايا ثمينة،ومصارحاً إياه في الوقت نفسه بأنه كان سيعطيه بيت المقدس ثمنا لمناصرته إياه على أخيه المعظم أما وقد تبدلت الظروف، ولم يعد بحاجة لهذه المناصرة فإنه لا يستطيع التفريط في بيت المقدس لأن ذلك سيثير عليه نقمة المسلمين[24].

ونتيجة لتنكر الملك الكامل بوعوده لفردريك الثاني ساء موقفه كثيراً وخاصة بعد أن جاءته الأخبار بأن البابا استغل فرصة غيابه، واعتدى على ممتلكاته فأخذ يرجو الكامل، و يستعطفه حتى قيل أنه كان يبكي في بعض مراحل

---

[18] المطوي، الحروب الصليبية، ص113.

[19] المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص228-229.

[20]توراو، الظاهر بيبرس، ص 33.

[21]ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 233.

[22] عاشور (سعيد عبد الفتاح): الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ج2، ط1، ص108.

[23]عاشور، الحركة الصليبية، ص 108.

[24]ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 234.

المفاوضات، وليس أدل على تذلل الإمبراطور ما جاء في رسائله للكامل *" أنا مملوكك وعتيقك ،وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فإن رجعت انكسرت حرمتي بينهم وهذه القدس فهي أهل اعتقادهم والمسلمون قد أخرجوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد الزيادة، فيكون صدقة منه ويرفع رأسي بين الملوك وأنا التزم بجعل دخلها إليك "*[25].

إلا أن الكامل كان يريد أن يتنصل من وعوده حيث كانت هذه الحملة لا تشكل أي خطر على المسلمين تجمدت الاتصالات بين الطرفين لمدة خمسة أشهر وأثناء ذلك شرع الإمبراطور في عمارة صيدا وسورها وقام بتحصين يافا فجاء ذلك بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى قيام فردريك وبقية الجموع الصليبية بالشام بعمل حربي ضده وهو الشعور الذي فسره المقريزي بقوله :*"إن الكامل خاف من غائلته وعجز عن مقاومته "*[26]، وكان الدخول في حرب ضد الإمبراطور، والصليبيين عندئذ تعني بالنسبة للكامل وقوعه بين ثلاثة أعداء ابن أخيه الملك الناصر داود من ناحية والخوارزمية التي استنجد بها الناصر داود من ناحية ثانية والصلبيين من ناحية ثالثة، وبما أن الحرب مع الصليبيين لم تكن موضع الاهتمام عند الكامل بل حظي تحصين وضعه الخاص في الدولة عنده بالمرتبة الأولى، وافق على عقد معاهدة يافا[27].

بنود معاهدة يافا:

كانت المفاوضات بين الملك الكامل وفردريك شاقة ومضنية وطويلة الأمر الذي أدى إلى استنزاف صبر الإمبراطور مما جعله يستعجل وصول الأمور إلى نهايتها،ولجأ في نهاية ذي القعدة 625هـ/تشرين الأول1228م إلى استعراض القوة فحشد عساكره وتقدم باتجاه يافا وحصنها، لكن أنباء سيئة وصلت إليه تقول بأن البابا أصدر قرار حرمان أخر بحقه لأنه رحل إلى الشرق دون أن يحصل على تحلل من قرار الحرمان السابق الذي صدر بحقه ،وأباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته . كادت هذه الأنباء أن تدفع الإمبراطور إلى بلاده إلا أنه تراجع لأنه أدرك أن عودته فاشلاً سوف تضاعف من حرج موقفه في الغرب،وتحت تأثير الرسول فخر الدين يوسف وافق الملك الكامل على عقد معاهدة يافا أو صلح يافا في ربيع الأول 627هـ/1229م وكتبت صيغة الاتفاقية باللغتين العربية واللاتينية، وحلفا على الالتزام بها[28]، وتضمن الاتفاق البنود الآتية:

1. مدة الاتفاق عشر سنوات ميلادية.

2. تبقى المناطق التي أخذها الصليبيون قبل الصلح بأيديهم وتشمل قلاع الشقيف وتبنين وكوكب وبيروت وصيدا ويافا والمجدل والرملة وعسقلان وبيت جبريل

3- تبقى المقدس خربة ولا يجدد سورها وتكون قراها للمسلمين وتكون تابعة للوالي بالبيرة الواقعة شمال القدس.

4-يبقى المسجد الأقصى والصخرة بيد المسلمين ويمارسون فيها الشعائر الدينية من آذان وصلاة، ولا يدخلها الصليبيين إلا للزيارة .

5-يأخذ الصلبيون بيت المقدس ، والناصرة وبيت لحم.

---

[25] ماهر حمادة (محمد): وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، بيروت، منشورات، مؤسسة الرسالة، ط1، 1989، ص 213.

[26] المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص229.

[27] توراو، الظاهر بيبرس، ص 33.

[28] قاسم عبده (قاسم): الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1996، ص97.

6- يعطى للصليبيون بعض القرى الواقعة على الطريق من عكا إلى القدس، حتى لا يتعرض الصليبيين القادمون من عكا لزيارة القدس للعدوان، وتبقى سائر المدن و القرى بين المسلمين .

7- إطلاق سراح الصليبيون ومن ضمنهم الأطفال الذين أسروا في حملة الأطفال السابقة .

8-تعهد الإمبراطور المشاركة في الدفاع عن الملك الكامل ضد أي عدوان حتى ولو كان من الإفرنج، كذلك تعهد أيضا عدم تقديم أية مساعدة لحكام أنطاكية وطرابلس، وحكام المناطق الإفرنجية الأخرى في بلاد الشام[29].

وبذلك حقق الإمبراطور فردريك الثاني، *"الرجل المحروم من الكنيسة، بإمكاناته المتواضعة، ودون قتال ما عجز عن تحقيقه ريتشارد قلب الأسد مع ما توافر له من الإمكانات الضخمة، وأعاد الأماكن النصرانية المقدسة إلى العالم النصراني"*[30]. لكن الرأي العام الإسلامي لم يغفر هذا الخطأ الفادح للكامل، وقد عبر أحد المعاصرين عن ذلك بقوله: *"وللكامل هفوة جرت منه، عفا الله عنه وذلك أنه سلم بيت المقدس إلى الفرنجة اختيارا، نعوذ بالله من سخط الله ومولاه أعداء الله"*. وكذلك قيل وصلت الأخبار بتسليم بيت المقدس إلى الفرنجة فقامت القيامة في جميع بلاد الشام واشتدت العظايم بحيث أقيمت المآتم في كل مكان[31].

النتائج والمناقشة:

من الصعب تقييم علاقة الملك الكامل الأيوبي بالإمبراطور فردريك الثاني باعتبارها علاقة شخصية بين صديقين، فألتزم الإمبراطور بقيادة الحملة الصليبية السادسة وانطلاقها تحت رايته اخرج العلاقة بين الكامل وفردريك من إطار العلاقة الشخصية ونقلها إلى حقل السياسة والدبلوماسية يضاف إلى تلك الظروف التي أحاطت بكل منهما، فالإمبراطور محروم كنسياً ومهدد في عرشه وسلطانه. أما الملك الكامل فقد أدت وفاة أخيه المعظم إلى جعله مؤتمنا على مقدسات المسلمين وأملاكهم، الأمر الذي حول هذه العلاقة إلى معركة دبلوماسية تسلح كل من الطرفين بأدواته وذرائعه لتحقيق مكاسبه، فالإمبراطور أراد إحراج الملك الكامل، واستعطافه لتسليمه بيت المقدس، بينما أراد الملك الكامل التهرب من وعده بتسليم بيت المقدس،وفي النهاية انتصر الإمبراطور بأدواته التي عاب عليه الصليبيون استخدامها على الرغم من عظمة ما حققته حملته من انتصارات دون خسائر، بينما خسر الملك الأيوبي بيت المقدس، وسمعته على مر العصور على الرغم من محاولات الكثير من المؤرخين تبرير موقفه وتلميع صورته.

[29]عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص294.

[30]طقوش، تاريخ الأيوبيين، ص 348.

[31]قاسم،الأيوبيين والمماليك، ص99.

References

-ABD AL_MUN"IM (Hmdi*), Studies of the History Ayyubid and Mamluk*, Dar al-Ma'arif al-Jami'yya, Egypt, no date, 1998.
-AL-MATUI (Muhammad al-'Arousi), *The Crusade in the East and Maghreb*, Dar al-Gharb al-Islami, Cairo, ed. 2, 1982.
-AL-DAWADARI (AbiBakr bin Abd Allah Bin Aybak*), Kanz al-Durrar W Gami' al-Ghurrar Al-Durr al-Matloub fi AkhbarbaniAyoub*, ed. Said Abdal-Fatah Ashour, Cairo, vol. 2, ed. 2, 1997.
-AL-MAQRIZI, (Taqi al-Din Ahmad ibn 'Ali), *al-Suluk li Ma'rifat Duwal al-Muluk*, Matba'at Dar al-Kutu al-'ilmia, Bairout, vol. 2, ed. 2, 1997.
-AL-UMARI (Abd al-Aziz bin Ibrahim), *Islamic Occupation Through ages*, Arabic Saoudit Kingdom, Dar Ishbilia, 1418.
-ASHOUR (Said Abd al-Fatah), T*he Crusade:A bright page in the History of Islamic Jihad in the Middle Ages*, Maktabat, Al-Anjlo al-Masryya, Cairo, vol. 2, ed. 9, 1989.
-IBN Al-ATHIR (Ali bin Muhammad al-Shaybani), *Al-Kamil fi al-Tarikh*), tr. Muhammad Yousf al-Duqaq, Dar al-Kutub al-Ilmia, Bairout, vol. 10, 2003.
-IBN KHULKAN, (Ahmad bin Muhammad bin AbyBakr bin Khulkan), *Wafiat al-Ayan W Anba' Abna' Al-Zaman*, Dar Sadir, Bairout, vol. 4, 2011.
-IBN WASIL (Jamal al-Din Muhammad bin Salim), *Mufarij al-Kouroub fi AkhbarbaniAyoub*, ed. Muhammad Rabi', re. Said Abd al-Fatah Ashour, Dar al-Kutubwa al-Watha'iq al-Qaoymia, al-Matba'a al-Amiria, vol. 4, no dat.
-IBRAHIM (RjabMuhmoud), *The History of State Ayyubid*, Maktabat al-Iman, al-Mansoura- Cairo, 2009.
-JOUBRAN (Nouman Mahmoud), *Studies in the History Ayyubid and Mamluk*, Mu'asisat Hamada lil-Khadamatwa al-Dirasat al-Jami'ia, Le Joudani, ed. 1, 2000.
-MAHIR HAMADA (Muhammad), *Documents of Crusades and Mongol invasion of the Islamic World*, ManshouratMu'assasat al-Risala, Bairout, ed. 1, 1979.
-MUHAMMAD (Muhammad Mursi), *The Age of Crusade*, Dar al-Ma'arif al-Jami'yya,Iskandri, no date, 2004.
-QASIM ABDA (Qasim), *Ayyubid and Mamluk: Political and Military History*, Dar al-Ma'arif al-Jami'yya, Egypt, no date, 1996.
-TAQOUSH(Muhammad Suhil), *The History ofAyyubid in Egypt*, Syria and Mesopotamia, Dar al-Nafa'is, Bairout, ed. 2, 2008.
-THORAU, P., *The Lion of Egypt: Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century*, tr. de l'allemand par P. M. Holt, London, 1992
-UMRAN (Mahmoud Said), *History of Crusade*, Dar al-Ma'arif al-Jami'yya, Egypt, no date, 2000.
-VOLVFANGHR (Mulre-Veniz), *Castles in the time of the Crusades*, tr. Muhammad Walid al-Jalad, Dar al-Fikr, Damascus, ed. 2, 1984.
-ZAKKAR (Souhil*), Comprehensive encyclopedia of the history of the Crusades, Sixth campaign*, Damascus, vol. 43, 1998